ترتيب القـــرآن

للأستاذ أبو طالب زيان

(تتمة ما نشر في العدد ٤٧٢)

اتفق العلماء على أن هذا الترتيب إنما يجب التزامه في كتابة المصاحف . أما في القراءة فليس بواجب . يدل على ذلك حديث عائشة في البخاري حيث قالت للعراقي الذي سألها عن تأليف القرآن : « لا يضرك أية قرأت » . وقد حمله جمهور المحدثين على أنه في القراءة بأية سورة أراد دون أن يلتزم الترتيب . قال ابن بطال : لا نعلم أحداً قال بوجوب ترتيب السور في القراءة لا داخل الصلاة ولا خارجها ، بل يجوز أن يقرأ الكهف قبل البقرة والحج قبل الكهف . وأما ما جاء عن السلف من النهي عن قراءة القرآن منكوساً ، فالمراد به أن يقرأ من آخر السورة إلى أولها . وكان جماعة يصنعون ذلك في القصيدة من الشعر مبالغة في حفظها ، وتذليلاً للسان في سردها ؛ فمنع السلف ذلك في القرآن فهو حرام فيه . اهـ

والآن أعود إلى سبق النزول فأقول : لست في حاجة إلى أن أكرر أن القرآن ابتدأ نزوله من ليلة اليوم السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده عليه الصلاة والسلام حيث أوحي إليه في غار حراء الذي كان يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، وأن أول آيات القرآن نزلت على النبي الكريم وهو بالغار ، وأن آخر آية نزلت يوم الجمعة ، يوم عرفة ، عام حجة الوداع . يدل على هذا ما رواه البخاري بسنده عن طارق بن شهاب عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود . قال له : يا أمير المؤمنين ، آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال أي آية ؟ قال : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً . قال عمر : قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم جمعة . ولقد روى البخاري هذا الحديث في عدة مواضع من صحيحه . ورواه أصحاب السُّنن إلا أبا داود . . . ولم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعدها شيء من الفرائض ولا تحليل شيء ولا تحريمه . ولم يعش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة

عن ابن عباس ومجاهد أن سورة « إقرأ » أول ما نزل من القرآن إلى قوله تعالى : « علم الإنسان ما لم يعلم » ثم نزل باقيها بعد . والجمهور على أن « الفاتحة » أول ما نزل ثم سورة « القلم » وسورة « الضحى » نزل منها أولاً إلى قوله تعالى « ولسوف يعطيك ربك فترضى » ثم نزل باقيها بعد ، ولم ينزل من السور الطوال سورة بتمامها إلا سورة « الأنعام » . فقد روى كثير من المحدثين نزولها جملة عن غير واحد من الصحابة والتابعين لأنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال المذاهب التي كذبت القرآن ولم يُؤمن أصحابها بالبعث والنشور . وهي من المقاصد الأساسية للدين الحنيف التي لا يتوقف نزول آياتها على السؤال والحوادث أو الأسباب التي تقتضي الإنزال

ولقد رجح هذا المذهب الإمام الرازي في تفسيره الكبير والقرطبي وغيرهما من علماء التفسير ، كالكشاف ، والنسفي . ولم يضعفه إلا الأستاذ الألوسي في كتابه « روح المعاني » فقد أنكر نزول هذه السورة جملة وقال : كيف يمكن حينئذ أن يقال في كل واحدة من آياتها أن سبب نزولها كذا ... ولكن إنكار الأستاذ ... ضعيف لأن ما ذكره الجمهور في أسباب نزول آياتها بعضه لا يصح والبعض الآخر لا يدل على نزول تلك الآيات متفرقة لأن غاية ما قالوه أن تلك الآية نزلت في كذا وكذا أو في قول المشركين كيت وكيت . فإذا صح كان معناه أن تلك الآيات نزلت بعد الوقائع ؛ وهذا لا يتنافى ونزولها دالة على ذلك في ضمن السورة ...

ولقد نزل كتاب الله في تلك الفترة بين مبتدأ الوحي ومنتهاه مفرقاً إلى أجزاء كل جزء منها يسمى نجماً ؛ وربما نزلت الآية المفردة وربما نزلت آيات عدة إلى عشر كما صح عند أهل الحديث فيما انتهى إليهم من طرق الرواة . فقد نزلت عشر آيات في قصة الإفك جملة ، ونزلت عشر آيات من أول المؤمنين جملة ، يدل على نزولها جملة ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب قال : كان إذا نزل على رسول الله الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا

ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا » ثم قال : لقد أنزل الله علىّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة . ثم قرأ : « قد أفلح المؤمنون » حتى ختم العشر ... وصح نزول «غير أولى الضرر» وحدها ، يدل على ذلك ما رواه البخارى فى كتاب الجهاد من حديث البراء بن عازب قال : لما نزلت « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً ، فجاء بكتف فكتبها . وشكا ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر » .

وفى هذه الرواية إبهام وضحته الرواية التى رواها البخارى أيضاً بعدها عن سهل بن سعد الساعدى ، وفيها التصريح بأن الذى نزل غير أولى الضرر وحدها .

ومن السور القصار ما كان ينزل جملة ومنها ما كان ينزل مفرقاً . ولقد كان هذا التنجيم مثاراً لعجب المشركين ومنشأ لاعتراضهم على القرآن ، فقد سمعوا أن الكتب السماوية السابقة كانت تنزل على الرسل جملة واحدة كما نزلت التوراة على موسى فى الألواح مرة واحدة[1] فقالوا إذا كان القرآن قد نزل على محمد من عند الله كما يدعى فما باله لم ينزل عليه جملة واحدة كما نزلت التوراة على موسى

وما باله تنزل منه الآية أو الآيات تلو الآية أو الآيات فى أزمنة متطاولة ؟ أليست سنة الله فى إنزال الكتب واحدة ؟

ألا يكون مجيئه هكذا مفرقاً دليلاً على أن محمداً صلى الله عليه وسلم يصطنعه ، ثم يدعى أنه من عند الله ؟

نعم ! ! ليست هذه الشبهة بأولى جهالاتهم ؛ فقد قالوا فى القرآن ما هو أبشع من هذا ، وغالطوا حسهم وعقلهم وكابروا وجدانهم ؛ فقالوا : « إن هذا إلا أساطير الأولين » ؛ وقالوا : « أساطير الأولين اكتتبها ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » ؛ وقالوا : « إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » ؛ وقالوا : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، قال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين » ؛ وقال الوليد بن المغيرة : إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر : « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » . وهكذا شأن كل جهول يحكم على الأشياء بجهله ، وبما يوحيه إليه فساده واستبداده ، وتصوره له سخافة فكره

ولقد جهل المشركون أن نزول القرآن منجماً أمر اقتضته حكمة الله التى سمت عن عقولهم ، وضلت عنها أفكارهم ؛ وأنه لولاه لما أحدث القرآن الكريم فى الأمة العربية ذلك الانقلاب

---

(١) أنكر بعض العلماء نزول التوراة على موسى صلى الله عليه وسلم جملة واحدة وقالوا إنه لا دليل عليه ، وأنها نزلت مفرقة كالقرآن الكريم وهذا خطأ رده الأدلة الصريحة فى أنها نزلت جملة واحدة . فمن هذه الأدلة قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة » فانها نزلت كما قال اليهود والمشركون للنبى صلى الله عليه وسلم : لولا أنزل القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة ؟ يدل على ذلك ما رواه ابن أبى حاتم عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قالت اليهود يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى . فنزلت الآية وأخرجه من وجه آخر عنه بلفظ قال المشركون والقرآن وإن لم يصرح بقولهم كما أنزلت التوراة جملة واحدة على موسى فان سكوته تعالى عن الرد عليهم فى ادعائهم نزول التوراة جملة واحدة ، وعدوله عنه إلى بيان حكمة نزول القرآن مفرقاً دليل على صحة قولهم هذا . وإلا فلو كان أدعاؤهم نزول التوراة جملة باطلا ... ولو كانت الكتب كلها نزلت مفرقة لكان يكفى فى الرد عليهم أن يقول إن ذلك سنة الله فى الكتب التى أنزلها على الرسل السابقين كما رد عليهم بمثل ذلك فى كثير من شبههم مثل قولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . فأجابهم بأن ذلك سنة الله فى جميع الرسل بقوله : وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق . ومثل قولهم « أبعث الله بشراً رسولا » فرد عليهم بقوله : « وما أرسلنا قبلك من رجال نوحي إليهم »

ومن الأدلة على نزولها جملة قوله تعالى فى إنزاله التوراة على موسى يوم الصعقة : « فخذ ما آتيناك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح = من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة » فانه صريح فى أن الله تعالى أنزل عليه ألواح التوراة مكتوبة جملة واحدة وأمره أن يأخذ بما فيها بعزيمة قوية . فأخذها موسى ورجع إلى قومه ليبلغهم إياها فوجدهم عكوفاً على عبادة العجل فألقى الألواح كما قال الله تعالى . ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال : بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح . وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح . وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون . فتصريحه تعالى بأنه أنزل إليه الألواح ، وأمره أن يأخذها بقوة ، وبأن موسى ألقى الألواح عند ما ثار به الغضب لعكوف قومه على عبادة العجل ، وبأنه أخذها بعد أن سكت عنه الغضب يدلنا بصراحة على أنها نزلت عليه جملة . وأخذها إلى قومه بتمامها . ويؤيد ذلك أن موسى عليه السلام لما أمرهم بامتثال ما فيها شق عليهم أن يأخذوا بتلك التكاليف دفعة واحدة وأبوا أن يمتثلوا حتى شق الله الجبل عليهم فخضعوا وامتثلوا . وفى هذا يقول الله : وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون .

ولو كان نزول التوراة متفرقاً ، والتكليف بها كذلك لما شق عليهم امتثالها ، ولما نفروا عن موسى حتى هددوا باسقاط الجبل عليهم بعد أن نتق فوق رءوسهم كأنه ظلة فادعاء بعض العلماء أنه لا دليل على نزول التوراة جملة واحدة إدعاء باطل يرده ما ذكرناه من هذه الأدلة : ا هـ.

الخطير الذى تسرى أثره فى الأمم ؛ فكان حداً فاصلاً بين عهدين : عهد طفولة النوع البشرى ، وعهد بلوغه أشده ، واستكماله خصائصه التى ميزه الله بها على كثير من خلقه ؛ وقد حكى الله تعالى شبهتهم هذه فى سورة الفرقان بقوله : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » ؛ وفنّدها ورد عليهم بقوله : « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » . فبين أن حكمة تنجيمه هى تثبيت فؤاد النبى عليه السلام فى مواطن اللجاج والخصومة بينه وبين المكابرين من أعدائه ، واقتصر فى بيان حكمة التنجيم على هذه الحكمة لمناسبة المقام ؛ فإن المشركين كانوا يظنون أن هذه الشبهة الواهية التى شنعوا بها على القرآن كافية فى هدم دعائم الدعوة المحمدية ، فعكس الله عليهم ظنهم وبيّن أن تنجيمه من أقوى العوامل فى تثبيت قلبه ، وتقوية شوكته ، وإحكام دعوته .

واقتصار القرآن على هذه الحكمة لا ينافى أن لتنجيمه حكماً أخرى يجتلى البصير نورها إذا تأمل فى المناسبات التى نزل القرآن لأجلها ، والغرض المنشود من إنزاله كله ، والظروف التى أحاطت بالرسول والمسلمين حين نزوله ، وإلى الباحث البيان :

الأول : أن نزوله منجما كان بحسب الوقائع والحوادث التى كانت تحصل فى المجتمع الإسلامى على عهد نزول التشريع والأسئلة والمقترحات التى كانت توجه من المسلمين أو غيرهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والشبه التى كانت تدور فى قلوب المشركين ويظهر القول بها على ألسنتهم ، ومما تقتضيه حالة المسلمين فى أوقات السلم من تقرير عقائد الدين وشرائعه وفضائله ، وقوانينه العامة التى يراد بها تنظيم المجتمع الإسلامي وتكوين أمة فتية متمتعة بكل خصائص الأمة الحية ، وحالتهم فى أوقات الحرب من الحث على الجهاد والغرض الذى يجب أن يقصد به ، وبيان الأحكام المتعلقة به . كتقسيم الغنائم والفرد وحكم الأسارى وغير ذلك .

الثانى : أنه نزل تدريجاً ليكون أبلغ فى التحدى وأظهر لإعجاز القرآن

الثالث : أنه نزل كذلك للتدريج فى تربية الأمة العربية تربية دينية وخلقية واجتماعية وإعدادها لمنزلة الخلافة فى الأرض ولقيامها مقام المصلح لما فسد من عقائد الأمم وما تسفّل من أخلاقها وعاداتها وتقاليدها وما اختتل من أحوالها العامة ونظمها الاجتماعية

الرابع : وليسهل حفظه وفهمه والعمل به على المسلمين وامتزاجه بدمائهم حتى يصير جزءاً من نسيجهم العقلى ليمكنهم أن يضطلعوا بأعباء الدعوة المحمدية بعد رسول الله على بصيرة وهدى وأن يسيروا فى هداية الأمم على نهج واضح ، ولا تبعد عنهم الغايات التى ندبوا لتحقيقها فى العالم الإنسانى

الخامس : وليثبت الله تعالى به فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم فى مواطن الخصومة : « كذلك لنثبت به فؤادك » رداً على قول المشركين « لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » فالآية صريحة فى أن نزوله منجما كان المقصود منه تثبيت فؤاد النبى عليه السلام ليتفرغ لتبليغ الدعوة المحمدية بعزيمة قوية وهمة متقدة وقلب مطمئن لا تساوره الأحزان ولا تحتل ساحته الهموم والأكدار التى تكسر شوكة العزيمة وتضعف قوة الإرادة وتطفىء جذوة النشاط الملتهب وتقيد الإنسان عن السير إلى المثل الأعلى الذى يتوخاه فى عمله ، خصوصاً فى مثل هذه المهمة الكبرى التى يراد بها صقل طبائع النفوس وتهذيب الفطر الإنسانية وإصلاح ما فسد من أحوال الأمم ، وتوجيه العالم البشرى في طريق الهدى والرشاد ليصل إلى سعادة الدنيا والآخرة

والخلاصة أنك ترى مما تقدم ذكره أن تنجيم القرآن الكريم مع كونه مقتضى الحكمة الإلهية كان ضرورة حتمية لا محيص عنها ، وأنه لو أنزل جملة واحدة ما أتى بالنتيجة المطلوبة منه فى تلك الأمة التى كانت عريقة في الجهالة والهمجية

أما بعد فلعلى بهذه العجالة ألقيت ضوءاً على هذا البحث الذى ألفيته من المباحث الشاقة فى التنقيب ، الوعرة فى السلك ، لجاريته على سرعته . وصادقته على علاته فطرقت حكم التنجيم ، لأنها منه كالتكملة والذيل والعلة للمعلول . ولعل من الباحثين من يبحثه بحثاً غير ما بحثت ، ويحرره تحريراً غير ما حررت ؛ ولنا فى ثقافتهم آمال كبار .

أبو طالب زيانه